كاتب من العالم

ألتشين سيفغي صوتشين
معلّقةٌ ثامنة باللغة التركية

تقف هذه الزاوية مع كاتب من العالم في أسئلة سريعة عن انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع القارئ العربي. «اكتب من وقت لآخر بعض الدراسات والمقالات والقصص، لكن مهما كتبت، اعود إلى الشعر بشغفٍ كبير»، تقول الشاعرة التركية لـ«العربي الجديد»

ألتشين سيفغي صوتشين (العربي الجديد)

القرة ـ العربي الجديد

بطاقة

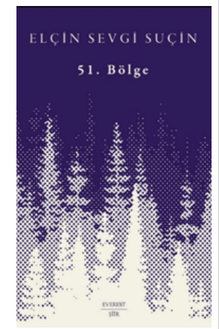

Elçin Sevgi Suçin شاعرة تركية وُلدت في مدينة ديزلي جنوب غربي تركيا، وتخرّجت من قسم العلاقات الدولية في «جامعة غازي» بأنقرة. من أعمالها الشعرية: «قصائد للكبار، حيوات ساحرة» (2012) و«لم يبقَ شيء تتذكّره سوى الحب والحرب» (2015)، و«المنطقة 51» (2024/ الغلاف). تُقارب صوتشين في شعرها موضوعات عديدة من الحياة المعاصرة، مُنطلقةً من التساؤلات البسيطة حول الحبّ والعيش وصولًا إلى معنى الوجود وتشابُكاته.

■ كيف تقدّمين المشهد الأدبي والثقافي في بلدك لقارئ لا يعرفه؟

تركيا بلدٌ ذو تعداد سكّاني كبير، ويتّسم بشريحة شبابية مرتفعة. لذا يمكن القول إنّها غنيّة الإنتاج في الشعر والمجالات الأدبية الأخرى. تُدعَم المهرجانات الأدبية بشكل عامّ من قبل البلديات، وهذا ما يسهّل تنظيم مهرجانات محلّية ودولية كبيرة وصغيرة كلّ عام في مختلف المدن، وخصوصاً في إسطنبول وإزمير، ويتيح ذلك الفرصة للّقاء الأدباء ومُحبّي الأدب. الاهتمام بالكتابة كبير جدّاً لدرجة أنّنا نشهد افتتاح ورش عمل أدبية جديدة كلّ يوم تقريباً. كذلك هناك فرق مسرحية قوية جدّاً في تركيا. وعلى الرغم من وجود العديد من الصعوبات، يجري عرض العديد من المسرحيات عالية الجودة كلّ عام.

■ كيف تقدّمين عملك لقارئ جديد. وبأيّ كتاب لك تنصحينه بأن يبدأ؟

ساقدّمه على الأرجح كمظاهر مرض الإنسان والتعرّض للبشر. فكما نعلم جميعاً، هناك حروب تدور رحاها في كلّ ركن من أركان العالم تقريباً، ولعلّ أكثرها تجري في الشرق الأوسط. أنا أعيش في بلد يقع وسط مناطق الحروب، ويحاول استضافة الناس الذين اضطرّوا إلى مغادرة ديارهم وبلدانهم بسبب الحرب، وهذا يجعلني أشهد من كثب على الألم البشر وجراحهم التي يستبيد البشر. يمكن للقارئ الذي يريد أن يكون شاهداً على عصره، ومن يُزعجه ما يحدث في عصره، ومن يريد أن يحمل مرآةً لعصره، ومن يريد أن يُسمع صوته من أجل عالم إنسانيّ أن يقرأ قصائدي. يمكنهم أن يبدأوا بكتابي الأوّل «قصائد للكبار، حيوات ساحرة». لأنّ أسبابي للكتابة لم تتغيّر أبداً.

■ ما السؤال الذي يشغلك هذه الأيام؟

لا يمكن للكاتب أن يزدهر بمعزل عن أرض وطنه. فكلّ ما يجري في جغرافيته يجري في عروقه. في بلدي، هناك الملايين من الناس الذين نزحوا من ديارهم. أشياء فظيعة تحدث في فلسطين هذه الأيام. فالعصر الرقمي نعمة ونقمة في آنٍ واحد، بإمكانك أن تتحدّث مع أحبابك وترى ابتساماتهم، وبإمكانك أن تتّصل بأقاربك القاطنين في أقاصي بقاع الأرض في يوم واحد. هذه أشياء رائعة. ولكن يمكنك أيضاً مشاهدة العنف الذي يحدث في أبعد بقعة من العالم في الوقت نفسه من منزلك، وتشاهد العواقب الرهيبة للحروب لحظة بلحظة. هذه أيضاً أشياء فظيعة. فالخير والشرّ ينتشران بالسرعة نفسها. ولكن يبدو أنّ الغالبية العظمى من الناس اليوم يميلون إلى تقليد الشرّ. في مثل هذه الأجواء، أعجز عن التفكير في شيء آخر سوى أن أشهد على عمري بقصائدي وكتاباتي، لعلّ أحداً يقرأها ويدرك أنّ الدمار لا فائدة منه فينحاز إلى الإنسانية.

■ ما أكثر ما تحبّينه في الثقافة التي تنتمين إليها، وما أكثر ما تتمنّين تغييره فيها؟

أكثر ما أحبّه هو التعاطف وكرم الضيافة. فأينما ذهبتُ وارتحلتُ في تركيا، يسعد الناس باستضافتك، وبالأخصّ في المناطق الريفية. إذا كان لديهم رغيفان من الخبز، فإنهم يتشاركون معك رغيفاً واحداً. لا يهتمّون بما لديهم، بل يحاولون إعداد ألذّ مائدة للضيف، ويتشاركون أفراحهم وأتراحهم. كنتُ أتمنّى أن يكون التوازن الاقتصادي أفضل. وأتمنّى لو لم تكن الفجوة بين دخل الناس الشهري واسعة جدّاً.

■ لو قُيض لك البدء من جديد، فأي مسار كنت ستختارين؟

كنتُ أتمنّى لو أنّني بدأتُ الكتابة في وقت أبكر من ذلك بكثير، فمجال كتابتي الرئيسي لا يزال الشعر. أكتب أيضاً من وقت لآخر بعض الدراسات التحليلية والمقالات والقصص القصيرة، لكن مهما كتبت، أعود إلى الشعر بشغفٍ كبير. أعتقد أن كتابة الشعر داءٌ لا أريد التخلّص منه.

> كلُّ ما يجري في جغرافية الكاتب يجري في عروقه

> سهّلت التكنولوجيا مشاركة الأفكار بسرعة ومراقبتها أيضاً

■ ما التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟ بالطبع، أتمنّى أن تنتهي الحروب والمعارك، وأتمنّى أن يجري القيام بأشياء أكثر فاعلية بشأن أزمة المناخ، والزيادة السريعة في درجة حرارة سطح الأرض، وأن تُفهم خطورة هذه المشكلة وأهمّيتها، وأتمنّى أن يكون توزيع الدخل والغذاء والمياه النظيفة بين الدول والأفراد عادلاً. فهذا العالم ملكٌ لنا جميعاً، وكلّنا بشر. يمكننا معاً أن نبني عالماً أفضل. لهذا، لا داعي للحروب وملايين القتلى.

■ شخصية من الماضي توَدّين لقاءها. ولماذا هي بالذات؟

أعتقد أنّ من غير الممكن تسمية كاتب واحد. أودّ أن ألتقي عمر الخيّام ويونس إمره ومولانا، وأيضاً محمود درويش. أودّ أن أتحدّث مع كلّ واحد منهم عن الشعر، عن عصورهم وفلسفتهم وأحزانهم وأشواقهم واقتراحاتهم للإنسانية، لأنّ كلّ واحدٍ منهم ليس شاعراً فحسب، بل هم بشرٌ حسّاسون وعطوفون فكّروا في عصرهم وفي الإنسانية.

■ ما هو، في اعتقادك، أكبر خطر على حرية الكاتب والكتابة في العالم اليوم؟

الإنسان بالطبع! لأنّ تسامح الإنسان مع الإنسان قد تناقص كثيراً. لقد ازدادت رؤية الأدب وسهولة الوصول إليه، وبالتالي الأفكار، كثيراً. فمن ناحية، سهّلت التكنولوجيا مشاركة الأفكار بسرعة، ومن ناحية أخرى سهّلت مراقبتها. وهذا يؤدي إلى فرض قيود على الكتّاب وتقييد حريتهم، خصوصاً في المناطق التي لا يزال يُنظر فيها إلى الأفكار على أنّها تهديد. ومع ذلك، فإنّ الإنسان خُلق ليُفكّر، وهذا ما يميّزه عن غيره من الكائنات الحيّة الأخرى. نحن ننتمي إلى ثقافة وثوقية تقول: «لا تفكّر أبداً»، وننظر إلى التفكير على أنه تهديد.

■ ما القضايا الرئيسية التي تدفعك إلى الكتابة؟ هل تحتاجين إلى قضية لتكتبي أم أنّ الكتابة بحدّ ذاتها قضية بالفعل؟

الإجابة عن كلا السؤالين هي نعم من لا يشعر بعدم الارتياح لوجوده في هذا العالم ليست لديه أيّ هموم كالكتابة. الكاتب هو الشخص الذي لا تنتهي أسئلته ومشاكله حول سبب وجوده هنا. إنّه يطمح إلى أكثر من المعلومات المكتسبة من خلال الكتب المقدّسة. لهذا السبب، يسأل بلا توقّف، وعندما يعجز عن الحصول على إجابات لأسئلته، يحاول أن يجيب عنها بنفسه. وبما أنه لا يجد إجابة محدّدة، فهو منفتح إلى الكتابة ما دام حيّاً. عند هذه النقطة تصبح الكتابة نفسها قضية.

■ الأدب العالمي يكتبه المترجمون. إلى أي درجة توافقين على هذه المقولة. وإلى أي درجة كتبك المترجمون؟

أوافقك الرأي كثيراً، لأنّ ترجمة النصوص المكتوبة إلى لغات أخرى هي ولادة جديدة لها. الولادة هي البعث والحياة، وإلّا فانت جنين ينتظر أن يولد بلغته الخاصّة فقط، ودائماً في رحم أمّه. الغرض من الكتابة هو النشر. وطريقة النشر هي من خلال الترجمات. وبهذا المعنى، فإنّ المترجمين أبطال يُعيدون خلق النص في أكثر من لغة بمهاراتهم اللغوية وخلفياتهم الثقافية ومشاعرهم وعواطفهم. وقد تُرجمت بعض قصائدي إلى العربية والفارسية والألبانية والإيطالية والإنكليزية، وأُدرج بعضها في مختارات شعرية عالمية.

■ كيف تصفين علاقتك باللغة التي تكتبين فيها؟ أكتب باللغة التركية، فالتركية هي لغتي الأمّ. بهذا المعنى، أعتقد أنّني أستطيع تعريف نفسي كلغة، لأنني لا أستطيع فصل نفسي عن اللغة، لذا فإنّ الكتابة تشبه النظر إلى نفسي في مرآة اللغة.

■ كاتب منسيّ من لغتك تودّين أن يقرأه العالم؟

ساكون سعيدةً لو استطاع الناس قراءة شعرائنا مثل يشار نزيه وشوكوفه نهال، الذين نشأوا في السنوات الأولى لتأسيس تركيا وتمكّنوا من نشر دواوين شعرية في تلك الأوقات العصيبة.

■ لو بقي إنتاجك بعد 1000 سنة، كيف تحبين أن تكون صورتك عند قرّائك؟

كنتُ أودّ كثيراً لو أنّني استطعتُ أن أكون شاهدة على العصر الذي يمرّون به وأن أنقله إليهم، وأدركُ أننا لا نستطيع القول بأننا تعلمنا دروساً من الماضي حينما ننظر إلى تاريخ الإنسانية. ومع ذلك أتمنّى أن أكون قد عكستُ لهم ما يجري في أيامنا هذه بأفضل طريقة ممكنة، وأن أكون قد ساهمتُ معهم في العمل لصالح الخير والإنسانية والعدل والرحمة ولو بشكلٍ بسيط.

■ كلمة صغيرة لقارئ عربي يقرأ أعمالك اليوم؟

أودّ أن أقول إنّني قريبتهم. كابناء جغرافية واحدة، نحن متشابهون حتى لو لم نولد جنباً إلى جنب. نمر بأفراح وأتراح متشابهة. أتابع من كثب الأدب والثقافة والشعر العربي بفضل زوجي محمد حقي سوتشين الذي قام بترجمات رائعة في مجال الأدب العربي، هؤلاء الشعراء الكبار الذين كتبوا قصائد المعلّقات السبع، والمتنبّي، والمعرّي، ونزار قباني، وأدونيس، ومحمود درويش وغيرهم الكثير ممّن لا أستطيع كتابة أسمائهم لضيق المساحة، لدرجة أنني كتبتُ قصيدة «المعلّقة الثامنة» بالتركية، وأتمنّى أن تجمعنا هذه الأبيات شعراً ومحبّة وصداقة.

إطلالة

أصواتهم التي تضيء عتمة الدروب

غناء أهل غزّة

في كلّ حارة وبيت وشارع، يُغنّي أهل غزّة لقلب الواقع راساً على عقب، فلعلّ كآبة القهر والظلم تتراجع على أثر استئناس الرُّوح باسمى دواء

عاطف الشاعر

يَجنّح الإنسان العربي للطَّرب بطبعه، وأقولُ الإنسان العربي لا لأُميّزه على أعراقٍ أخرى، فذلك لا يَرُوق لمثلي. إنما المسألة تظهر حين نَقتفي أثر هذه الحضارة العربية فنجدها منذ البداية غَنَيّة، أو غارقة لو شاء آخر أن يقول، في ما هو حَسَنُ الصوت، في ما يُطرب، سواءً عبر التراتيم أو النَّشيد أو التجويد والشعر والغناء، وكلّ هذه تُفضي إلى أمّة أو أمم تقولبت وتطبّعت على إرساء أفكارها في ما له صدى صوتي وحِسّي حسَنٌ، يُحرّك الجسَد والفؤاد، ويُحيلهما إلى كوكب تفاعلي مع الانغام. أذكّر ما سبق لأقول، إعجاباً، إنّ أهل غزّة يعتلون نواصي النشيد هذه الأيام، فتجدُ الصوت الحسَن في كلّ حارة وبيت وشارع. وهذا النشيد هو أُنس الجريح، روحاً وجسداً وبيتاً وفقداً. النشيدُ أمل الرُّوح بالرُّوح، وتحييد وتجاوز القلق بينما الصوتُ يصدحُ منشداً أو مغنّياً، هو قلبُ الواقع رأساً على عقب، لعلّ كآبة القهر والظلم تتراجعُ وتخفت على أثر استئناس الرُّوح باسمى ما بها من دواء، وهو الغناء.

تُصيخ لفظة الصاروخ والطائرات والرَّشّاشات وكلّ أدوات القتل والإجرام الصهيونية «ملطّة» كما يُقال بالعامّية. نعم، هي تقتل وتُدمّر وتُشوّه، إلّا أنّها في الوقت نفسه لفظات يسخَرُ منها الصامدون المُحتسبُون القابضون على جَمر جراحهم وفقدهم في غزّة أنّهم ما زالوا يُقاومون، وأنّ العدوّ المُجرم لن ينال من عزيمتهم، وأنهم وأرضهم وأهلهم نداء وجود يربطهم بتاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم.

وتكثُر الرسائل في الإغاني والأناشيد، فمن الاحتفاء بالشُّهداء و«الطبطبة» على الجرحى إلى التمسُّك بالصمود وتطييب الخواطر، والقول إنّ أسرى ما في حياتنا كرامتُنا التي هي جذوة مقاومتنا وعنوانها الأسمى. فماذا سيفعلُ المحتلّ الصهيوني وولّاة أمره السَّفلة في «البيت الأبيض»، وكلّ بيوت الحُكم الغربية التي تعملُ خدماً عند الصهيونية العالمية القذرة، مع أغنية كهذه بعد ثمانية أشهر من الموت الرُّؤام المفروض على غزّة: «اصمُدي يا غزّة العزّة/ القصف بهون/ رح نُوخذ بتار الشهداء/ البطل بمليون/ إلك علينا هالعهد/ إحنا ما بنخون/ أرضي، يا أرض السلام/ يا بلد الزيتون...».

يُغنّي أهلُ غزّة في المخيّمات، وفي الطُّرقات والأسواق، وعلى أسِرّة المرض -إنْ وُجدتْ- وأمام البحر، وبين الأزقّة والمقابر. تُغنّي عيونهم وأجسادهم وأرواحهم، ويُغنّون من غصّتهم على بعض «مُؤثّر» من العالَم الخسيس الذي تُسيطر عليه شرائع الغاب الصهيونية والأميركية. يُغنّون وكأنّهم شمعةٌ في الظلام الدامس تُضيء أصواتهم لمن أعماهم ضيقُ الدُّروب. يُغنّون ليستأنسوا ويُؤكّدوا لأنفسهم ولنا، نحنُ الذين نُحبّهم ونقترب منهم لأنّهم أعماقنا التي تقتربُ من مصائرهم، أنّهم ما زالوا أعزّاء، وتبًا لكلّ المُعتدين: «نُموتُ بعزّة/ يُويا/ صمدنا بغزّة/ يُويا/ شعب جبّار/ يُويا/ رغم الحصار/ يُويا/ طيران ضربونا/ يُويا/ أشلاء خلّونا/ يُويا/ يوم سبت سبات/ أجوا الخواجات/ يُويا/ قصفوا حارتنا/ يُويا/ كسروا لعبتنا/ ما بدنا نهاجر/ يُويا/ رفضنا نهاجر/ يُويا/ نموتُ بعزّة/ يُويا/ صمدنا بغزّة». وكم هو مُؤثّر أن نسمع أهل غزّة وهُم يُجوّدون آيات من القرآن، آياتٍ من هذا الكتاب المُعجزة اللغوية والبنيوية والتصويرية، والعميقِ المعاني والأثر في نَفْس كلّ من تسوّقه نفسه للسمع حسَنَ النيّة. فمهما كانت الخلفيّة الفكريّة للسامع، يسمو القرآن بالنفس الخاوية، ويؤنسها في ما خَسُنَ من ماربها، كما في حين الجرح والفقد والتيه والسؤال. كتابٌ تتسابق كلماته ومعانيه للتعبير عن واقع كثير الوجوه، قليلٌ ما فيه يُفضي إلى خلاص طال انتظاره.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مُقيم في لندن)

> تذوي أصوات «الزنّانات» وطائرات الموت أمام رِقّة أغنياتهم

جانب من نشاط لدعم الأطفال نفسيًا في ظلّ استمرار العدوان، خانيونس، 21 أيار/ مايو 2024 (Getty)

كتاب

عدالة المكان تاريخ مكتوب بأصوات النساء

كُورٌ في جدار سُوريّ كتيم

يُضيء الكتاب، الذي يُطلَق الجزء الأوّل منه اليوم في برلين، قصص ستّ نساء سوريّات من ريف دمشق عشن تجربة التهجير القسري إبّان الانتفاضة

أنس الأسعد

تاريخٌ سوريّ ترويه وتكتبه النساء. بهذه الكلمات يُمكن أن نصف كتاب «عدالة المكان» الذي صدر حديثاً عن منظّمة "النساء الآن"، وخُصّص لحالات مناطق سوريّة: الزبداني ومضايا ودارَيّا، التي تعرّض أهاليها للتهجير القسري الذي كان من وسائل قمع النظام للانتفاضة السورية، ونُفّذ على مراحل مختلفة خلال العقد الماضي منذ عام 2011. يضمّ الكتاب شهادات وقصصاً لستّ نساء سوريّات، هُنّ: نسرين العبدالله (الزبداني، مضايا)، وفيروز (مضايا)، و«الدمشقيّة» (اسم مستعار، الزبداني)، و«شعاع الأمل» (اسم مستعار، الزبداني)، وسميّة الخولاني (داريّا) وياسمين شريجي (داريّا)، وقد أعدّته الباحثتان سلمى كريم وأمل عمّار من «وحدة البحث النسوي» في المنظّمة، وهو الأوّل من سلسلة تُغطّي سياق التهجير القسري في ريف دمشق منذ 2011. وسيُطلَق الجزء الأوّل بنسختيه العربية والإنكليزية عند السادسة والنصف من مساء اليوم الاثنين في مكتب «شبكة فبراير» ببرلين، خلال جلسة نقاش تُديرها الروائية والطبيبة نجاة عبد الصمد.

ليس الكتاب جَمْعاً للشهادات فقط، بل هو إعادة تشكيل لأحداث سياسية بالاعتماد على انثربولوجيا نسوية أعادت ترميم ثغرات ما بين المرويّات. نقرأ في المقدّمة: «هل للمكان عدالة؟ نعم، للمكان عدالة من عدالة أصحابه وسكّانه وساكناته، للمكان روحٌ تتغيّر بتغيُّر من يعيش فيه، للمكان مشاعر تتجاوب مع مشاعر من فيه. نحن وأماكننا كلٌ لا يتجزّأ، والجريمة التي ارتُكبت بحقّنا وحقّه لها أبعادٌ أعمقُ من أن تُلخّص بقانون أو محكمة أو قرار».

يهدف العمل، أيضاً، وفقاً للقائمات عليه إلى «نزع مفهوم التجريد والترقيم والتجميع للضحايا، هُنّ لسنَ أرقاماً، ولا مجموعات من الأفراد المتشابهة، فلكلٍّ منهنّ حكايتها وتجربتها وشخصيّتها وأحلامها وواقعها». وهذا يقودنا إلى التأمّل في راهن مُماثل تعيشه نساء غزّة، وفي حال التاريخ بوصفه مرويّات ومناهج يكتبُها ويصنعها الرجال، وعلى الأغلب هُم «أبطال» الساحة والمشهد، في ظلّ تغييب مُتعمّد وسائد لأصوات النساء.

وفي هذا السياق تستشهد القائمات على العمل بمقولة للناشطة والباحثة النسوية الباكستانية ماهنور سارغانا: «تخيّل أنّ كُتُب التاريخ مليئة بالنُّسَب الصحيحة لمساهمة المرأة في التاريخ. سوف ينمو جميع قادة المستقبل مع فكرة أنّ مساهمة المرأة في جميع جوانب المجتمع هو القاعدة». يستحضر الكتاب (300 صفحة)، بدءاً من عنوانه، منهجيةً تقاطعية مع السرد النسوي، وتتمثّل بمفهوم عدالة المكان التي اشتغل عليها المعمار الأميركي إدوارد سوجا، بما هي «التوزيع العادل والمُنصف في فضاء الموارد ذات القيمة الاجتماعية وفرص استخدامها». وحقيقةً إنّ مقدّمة العمل، وبطرحها هذه الرؤية المنهجية في تاريخ الأحداث، تفتح كُوىً في جدار كتيم ومُحتكر، وتُشكّل مدخلاً يستحقّ الوقوف عنده، فضلاً عن الموضوع الأساسي؛ أي أصوات النساء المشاركات وتجاربهنّ، الذي لا ينفصم عن المقدّمة بطبيعة الحال.

يُشار إلى أنّ الأجزاء التالية من العمل ستتناول مناطق مختلفة من ريف دمشق؛ مثل: دوما، وحرستا، وسقبا، وعربين، والقابون، وبلدا، ومُخيّم اليرموك، والحجر الأسود، ومعضّمية الشام.

امرأة سورية تجلس في «حافلة الحرّية» التي تُذكّر بالمُعتقلين في سُجون النظام، باريس، 2018 (Getty)

فعاليات

الحرب على غزّة في شهرها الثامن: أزمة إسرائيل وسياساتها الداخلية والخارجية عنوان ندوة يُقيمها «مدى الكرمل» في «مقهى ليوان الثقافي» بمدينة الناصرة عند السادسة من مساء بعد غدٍ الأربعاء. الندوة تُديرها **عرين هوّاري**، ويتحدّث فيها الباحثان **إمطانس شحادة** و**انطوان شلحت** (الصورة) والمحامية عبير بكر.

يحتضن «المركز الثقافي الملكي» في عمّان، عند السادسة من مساء بعد غدٍ، ندوةً لإطلاق موسوعة غوستاف دالمان **العمل والعادات والتقاليد في فلسطين**، والتي أصدر «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» ترجمتها العربية في عشرة أجزاء. يشارك في الندوة: **محمد أبو زيد**، و**عمر الغول**، و**محمد مرقطن**، و**نادية عبد الهادي سختيان**، و**صقر أبو فخر**، وتدير الحوار **مها الخطيب**.

تستضيف «مكتبة الِف» بفرع الدفنة في الدوحة، عند السادسة من مساء بعد غدٍ الأربعاء، الكاتب اليمني **حبيب عبد الرب سروري** (الصورة)، ضمن ندوات **حديث الألِف** التي تُنظّمها مجموعة «فضاءات ميديا» وتُقدّمها الروائية السورية سمر يزبك. تُبثّ الندوة عبر صفحة «العربي الجديد» على فيسبوك وقناتها على «يوتيوب».

مربّع سكني عنوان معرض للتشكيلي الفلسطيني **رافت اسعد**، يستمرّ حتى نهاية الشهر الجاري في «المتحف الفلسطيني» ببيرزيت، ضمن التظاهرة الفنّية المخصّصة لغزّة، والتي أطلقها في شباط/ فبراير الماضي. يضمّ المعرض مجموعةً من اللوحات التي يستوحيها اسعد من الحروب الإسرائيلية المتتالية على قطاع غزّة.

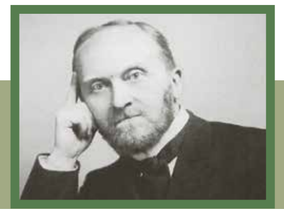

موسوعة العمل والعادات والتقاليد في فلسطين

يُعد كتاب المستعرب الألماني غوستاف دالمان «العمل والعادات والتقاليد في فلسطين» أهم وثيقة انثروبولوجية عن فلسطين... الكتاب في أصله ثمانية أجزاء في تسعة مجلدات، وقد رفدها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات الذي نشر الكتاب مترجماً من الألمانية إلى العربية بمجلدٍ عاشر كتبه دالمان عن القدس

غوستاف دالمان... كم هو فاتنٌ أرجوانُ فلسطين

محمد هديب

قبل اثنتي عشرة سنة من ميلاد عالم الآثار واللاهوتي والمستعرب والخبير في اللغات القديمة الآرامية والعربية والعبرية واليونانية، الألماني غوستاف دالمان (1855 – 1941)، كان قسّ الإمبراطورية الاستعمارية البريطانية الكسندر كيث (1791- 1880) يقرّر بصلف أنّ فلسطين «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». وامتدّ العمر بدالمان لبعايش السياسي ونستون تشرشل، المدلّل في وسائل إعلامه بلقب «قاهر هتلر» وحائز جائزة نوبل لآدابٍ عن مجزء مذكرات سياسية. وقف هذا الرجل أمام تحقيق لجنة بيل، لجنة التحقيق الملكية البريطانية لفلسطين (1936- 1937) التي أنشئت إبّان الثورة الفلسطينية الكبرى ضدّ الانتداب والهجرة اليهودية، وقال: «أنا لا أوافق على أنّ للكلب الموجود في المِذود (موضع علف الدواب) الحقّ النهائي فيه، على الرغم من أنّه ربما يُقعي هناك منذ فترة طويلة جداً».

والرجلان، القس والسياسي، قدّما أشدّ تلخيص للعقل الاستعماري الذي يقوم على التلفيق والدم، ضمن موجة عارمة احتشدت فيها الجمعيات والصناديق الاستكشافية من بريطانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة لإسقاط «علم آثار توراتي» على فلسطين يقضي مسبقاً بعدم وجود شعب، أو بوجود بدائي في أفضل الأحوال لا يستحقّ الذكر.

جاءت منذ نهاية القرن التاسع عشر سنواتٌ طويلة قضاها غوستاف دالمان معاكساً هذه الهجمة الظالمة، وقرّر، وهو اللاهوتي المؤمن بكتابه المقدّس، أنّ الدراسة الإثنوغرافية بالغة الدقة لشعب يعيش الآن على هذه الأرض طريقه لفهم ذُلك التاريخ السحيق.

درّة ما أنجزه دالمان موسوعته التي ترجمها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في عشرة أجزاء، واحد منها عن القدس والباقي تحت عنوان «العمل والعادات والتقاليد في فلسطين»، وصرفت جهود الترجمة والبحث والمراجعة المضنية عشر سنوات من 2013 حتى 2023. وإذا قلنا إنّها موسوعة ضخمة فهي كذلك، غير أنّ العجيب هو الجَلَد الدؤوب والحفر بدقّة الإبرة في توثيق الحياة الفلسطينية، في بناها الاجتماعية والثقافية والزراعية والعمرانية، من مضارب البدو إلى القلاّحين في بيوتهم ومواسمهم الزراعية إلى المدن.

منذ وطأتْ قدماه أرض فلسطين عام 1899 ودخوله القدس في 17 إبريل/ نيسان من ذلك العام، وقع أمرٌ لافتٌ للانتباه، وهو صدور كتابه «الديوان الفلسطيني» عام 1901، وجمع فيه نصوص الأغاني الشعبية الفلسطينية بشموليةٍ ومعرفةٍ، بفوارق النطق بين اللهجات وملحقّة بنوتاتٍ موسيقية. كيف أنجز هذا وهو الذي قضى في فلسطين شهرين، ثم ارتحل إلى حلب سبعة أشهر، ثم عاد. وفي ذهابه وعودته، زار الأردن وجنوب لبنان، ثم استقرّ بعض الوقت في مصر؟ أي أنّ كتابه الهام، وهو لم يترجم بعد ترجمةً رسمية، جمع مادّته بصبر ومواظبة في بضعة أشهر. والحديث إن كان في هذا المقام غير متعلّق بـ«الديوان الفلسطيني»، إلا أنّ مفتاح المسيرة المعرفية لدالمان من خلال الشعر الشعبي يقطع بشكل واضح بأنّه ليس من تلك الفصيلة التي اشتُهر عنها حملها معول الحفر بيد والتوراة بيد.

لقد دخل مباشرة في النسيج الاجتماعي منذ البداية، قبل أن يتلقّى أمر التعيين من الإمبراطور فيلهلم الثاني عام 1902 مديراً للمعهد الإنجيلي لدراسة الأرض المقدّسة في العصور القديمة حتى 1917. وهذا التكليف المموّل من قوةٍ عظمى في ذلك الوقت وضع دالمان في المجال الأصعب من البحث، إذ كان من سبقه يحفظون الدرس الديني من كتاب مقدّس تجاه أرض مقدّسة، وهذه القدسية أسهل ما يمكن أن تفعله دولٌ من طراز بريطانيا وفرنسا لنزع شرعية الوجود للسكّان الأصليين، وبناء مستوطنات مقدّسة كما الولايات المتحدة، والمستوطنات الإسرائيلية، ويحقّ فيهما ما قاله زعيم «هندي أحمر» إنّ «جلادنا المقدس واحد». حين نقرأ الآن ما كتبه دالمان في مقدّمته سنعرف كم هو مختلف، وكم تلزمنا قراءةٌ ما أنجزه، لأهميته الكبرى في قراءةٍ شعب وأرضٍ معاصرتين، حتى وهو يضع الكتاب المقدّس للمقارنة والتمثل بوصفه لاهوتياً. لكنه يعود من فلسطين العربية التي يُؤمن بها، وعليه، لا تصبح الحفريات الدينية مصدر قلقٍ دائم لنا، تحديداً لأنّها غير مؤدلجة ولا تُكتب كما تُكتب تقارير الجواسيس الاستعماريين. «العلم» المشتق من تاريخ إسرائيل الأسطوري القديم جعل من التوراة وثيقة مُلكية عقارية، بوصف عزمي بشارة. لذلك أخذت كتابة دالمان مكانتها الرفيعة، لأنه، بوصف بشارة أيضاً، «لم يتجاهل أهل البلاد، ولم يعزهم ظاهرة عابرة». ولنأخذ من دالمان هذه العبارة في مقدّمة الجزء الأوّل من موسوعته «على سكان فلسطين أولاً وقبل كل شيء وبفخر له ما يبرّره بشخصيتهم الفذة وماضيهم إقامة معلم لثقافتهم من خلال رواية مطابقة للحقيقة دونما تلطيف أو تجميل قبل أن يقوم التأثير الأوروبي بتفسيخه والقضاء عليه». جرثُ دماءً كثيرة تحت الجسر مع ولادة ماساة فلسطين، وقبل أن نُراكم المؤرّخون والباحثون سرديات تنقض الخرافات المستعلية العنصرية بشجاعةٍ علمية وأخلاقية، كما فعل، بعد عقودٍ من النكبة الأولى، كتاب المؤرّخ كيث وايتلام «اختلاق إسرائيل القديمة... إسكات التاريخ الفلسطيني» داعياً إلى التحرّر من قبضة الدراسات التوراتية. لا بل من بين هؤلاء علماء آثار إسرائيليون، مثل إسرائيل فلنكشتاين وزئيف هيرتسوغ اللذين لا يكفّان عن نفي أيّ شواهد أثرية توافق أسطورة أرض الميعاد.

لناخذ أيضاً مثالاً ساطعاً يأتي على لسان دالمان في تثبيته أسماء المواقع العربية، فقد جاءت قائمة الأسماء التي وضعها سوسين (يقصد المستشرق السويسري البرت سوسين) ونُشرت بعد وفاته في 1899 كثيرة الأخطاء والبيانات غير الدقيقة، لأنّ ما فيها من معلوماتٍ لم يُؤخذ من أفواه الناس مباشرة. يلتزم منهج دالمان العلمي بجذرية يعبّر عنها بالقول إنّ «الأصل أنّ يحدّد الباحث كيف يفهم الناس أسماء المواقع في الأماكن التي يستخدمونها. أما كيف يسمّى موقع في أماكن أخرى، أو كيف يسمّى الموقع في اللغة المكتوبة، فهذا أمر لا قيمة له مبدئياً». تنقسم الموسوعة إلى المجلد الأول في جزأين، الأول سِفْر السنة وسِفْر اليوم الشرقي من المجلد الأول في جزأين، الأول سِفْر السنة وسِفْر اليوم الشرقي (1927) والثاني الربيع والصيف (1928) تلاهما مجلد «الزراعة» (1932) و«من الحصاد إلى الدقيق» (1933) و«خبز وزيت ونبيذ» (1934) و«قماش النسج والغزل والنسيج والملابس» 1937، والسادس «حياة الخيمة وتربية المواشي وتصنيع الألبان واصطياد الحيوانات وصيد السمك» 1939، والسابع «البيت، تربية الدواجن، تربية الحمام، تربية النحل» 1940، والثامن «الحياة المنزلية والميلاد والزواج والموت» (2001). وصدر الكتاب الأخير بعد 60 عاماً من وفاة دالمان بمبادرةٍ من معهد غوستاف دالمان، وهو غير مكتمل وترد فيه فصولٌ عن الولادة وتربية الأطفال والحياة البيتية وحسن الضيافة والموت والدفن. أما فصل العرس ومأدبة العرس فبقيت صفحاته فارغة كما تركها.

تمنّى دالمان لو أنّه أكمل كتاباته وهو مقيم في فلسطين، حتى يتثنّت أكثر من كلّ ما دوّنه. ومنذ 1927 بدأ كالمحموم يُتمّ جزءاً، وينتقل إلى آخر، إضافة إلى كتاب «القدس ومحيطها الطبيعي» الذي كتبه عام 1929، وآثار أخرى ككتاب «مائة صورة جوية من فلسطين» (1925).

يدفع بنا دالمان برفق إلى فلسطين التي أحبّها في كلّ مواسمها، وجال فيها راجلاً وعلى الدواب، لم يترك شيئاً إلا اهتم به، بل هام به، وهو الذي بقي يتذكّر ربيع البلاد ويصفه «كم هو فاتنٌ تألقُ زهر أرجوان فلسطين! فمن سبق له أن تمتّع به في الشمس الفلسطينية لا بد أن يشتاق إليه دائماً، وخير ممثّل له هو شقائق النعمان».

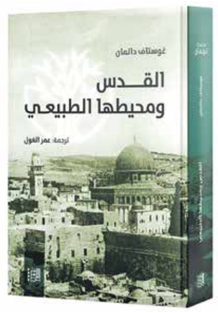

حفْر بدقّة الإبرة في توثيق الحياة الفلسطينية، في بناها الاجتماعية والثقافية والزراعية والعمرانية

لبنة أساسية في هُويّة فلسطين الثقافية

محمد مرقطن

تعرّفت إلى الاسم، غوستاف دالمان، نهاية السبعينيات، قبل قدومي إلى ألمانيا، خلال زيارتي عائلة ألمانية في جبل اللويبدة بعمّان، حين قدموا كتاباً لي وقالوا: «إليك تراث فلسطين»، وكان هذا كتاب دالمان «الديوان الفلسطيني» Palästinischer Diwan (صدر في 1901). وفيه تجميع وتحليل للأغاني الشعبية الفلسطينية. من هنا، اقتربتُ من الحقل الذي انخرط فيه عالم اللاهوت الألماني والباحث السامية، بعد جامعة لايبزغ من أهم المحطات العلمية التي تتلمذ فيها وتعلّم اللغات السامية، بما فيها اللغة العربية.

سافر دالمان إلى فلسطين عام 1899 في رحلة علمية سنة ونصف السنة. وهذا تعرّف دالمان على حياة الفلسطينيين عن قرب في القرى والمدن والبادية، ودشّن الأساس لرؤيته للبحث العلمي في الثقافة المادية المعاصرة والقديمة في فلسطين. عبّئه القيصر الألماني فيلهلم الثاني مديراً لـ«المعهد الإنجيلي الألماني لدراسات الشرق العربي لفلسطين، ويمتدّ هذا المعهد إلى ما بعد القيام بثورة 1936 حيث انطلق دالمان صيف 1914 مع عائلته إلى أوروبا بعد اندلعت الحرب العالمية الأولى. وبسبب نقده السياسة البريطانية، لم يُسمح له بالعودة إلى القدس واستئناف عمله في المعهد، وكان قد قبل في 1917 دعوةً وجّهت إليه ليكون أستاذاً في جامعة غرايفسفالد الألمانية، حيث تفرّغ للبحث العلمي، وأسّس في عام 1900 معهداً أسماه «معهد دراسات الأراضي التوراتية والقديمة»، والذي أصبح فيما بعد يُعرف بمعهد غوستاف دالمان للدراسات الفلسطينية. وبالإضافة إلى أبحاثه المتعدّدة في اللغة الآرامية، بما فيها بشان النموذج الأصلي لكلمات يسوع ومنطقة القدس، كان عمله الأساسي في غرايفسفالد إنتاجَ عمله الموسوعي «العمل والعادات في فلسطين»، سبعة مجلدات مع أكثر من ثلاثة آلاف صفحة. وظلّ المجلد الثامن غير مكتمل، ونُشر في جزء خاص في العام 2001. وقد تمّ الحفاظ في هذه الجامعة الآن على المادّة العلمية الخاصة بغوستاف دالمان، وبأكثر من 20 ألف صورة، إضافة إلى الرسومات التي كان قد جمعها. ويمكن القول إنّ غوستاف دالمان ترك ما يمكن أن يُوصف بالأرث الثقافي المستدام من المادّة العلمية عن الثقافة الفلسطينية.

المنهجية العلمية

قليلون من انصفوا التاريخ الفلسطيني من علماء الغرب، ولكن منهجية دالمان أنصفت فلسطين. وأهمية منهجيته العلمية في موضوع دراسة الثقافة المادية الفلسطينية، وقد وصف حياة الشعب الفلسطيني وأرضه بها هي، ودوّن أحكاماً مسبقة، وبطريقةٍ علمية. وقد كانت نقطة البداية عنده الانطلاق من الوضع الحالي إلى الثقافة العربية الفلسطينية في زمنه من أجل بناء جسر مستدام يربطُ الحاضر العربي لفلسطين، ويمتدّ إلى ماضيها القديم. وكان دالمان يعتقد أنّ هذا هو المدخل الأساسي لفهم بيئة الكتاب المقدّس، فقد اعتمد، في أبحاثه، على الحياة اليومية، وغرَض صورةً شاملة تمثّل حياة الإنسان في فلسطين مع امتداداتها في العصور القديمة، وابتعد عن الانثقافية والجزئيات التي يستخدمها علماء اللاهوت في تفسير الظواهر والأحداث التاريخية والدينية.

كان يهمّه إعطاء صورةً شاملة عن بلاد فلسطين وعن حياة الإنسان أيام المسيح وأرض الكتاب المقدّس من خلال تلك الصورة الشاملة، واستخدم فيها دراسة طبيعة التربة والمناخ والنباتات، ثمّ عرّج إلى العمل والعادات لسكّان البلاد، بما في ذلك أنماط سكنهم وأشكال الحياة للقرية والمدينة والبادية في الحاضر والماضي، وجمع كلّ ما يتعلّق بذلك، بما فيها ما يتعلّق بالحياة اليومية والتقاليد الأدبية والموسيقية، واعتمد الإثنولوجيا والتاريخ والآثار والجغرافيا وغيرها في دراساته.

«العمل والعادات في فلسطين»

أهمّ أعمال دالمان العلمية عمله الموسوعي «العمل والعادات في فلسطين»، ولا يمكن تخمين ثراء المادة العلمية وتنوّعها في هذا العمل المتميّز من خلال هذا العنوان الموجز، صدر هذا العمل في سبعة مجلدات (الأول في جزأين) في أثناء حياته في الأعوام 1928- 1942. وعندما توفي في 1941 كان المجلد السابع في المطبعة. وتبعها المجلد الثامن بعد مماته، والذي صدر في 2001. وتحتوي المجلدات السبعة الأولى على نحو ثلاثة آلاف صفحة و700 رسم توضيحي. في المجلد الأوّل في جزأين عام 1928، عمل نموذجي للدراسات القديمة ودراسات ثقافة فلسطين. يقدّم هذا المجلد ويعالج فصول الخريف والشتاء والصيف والربيع في فلسطين، حيث يبدأ بسرد مُفصّل للمواسم والروتين اليومي، ويشرح كيف يختبرُ المرء الطبيعة في فلسطين، وكيف يعيشها الإنسان من حيث إحساسه بها كالبرد والحرارة والمطر والجفاف، معتبراً بالتفاصيل الدقيقة ومع عرض لمصادر المعرفة والخبرات الإنسانية وشرحٍ للعادات الاجتماعية التي تربط بين سكان فلسطين في تلك الفترة. يتناول المجلد الثاني الزراعة، ويقدّم بشكل مكثّف المسائل الأساسية في ممارسة الزراعة في فلسطين، ووصفاً فريداً للمعدّات والمحاصيل الزراعية، ويتم شرح هذا القطاع المركزي في حياة أهل فلسطين بشكل شامل ومفصّل ودوره في حياة الفلسطينيين، ما يوفّر نظرة عميقة في التراث الثقافي في فلسطين. ويقدّم دالمان في المجلد الثالث «من الحصاد إلى الطحن»: الحصاد، المَدْرس، التذرية، الغربلة، التخزين، الطحن» دراسة عامة ومفصّلة عن الخطوات الأساسية لزراعة المحاصيل في فلسطين، ابتداءً من البذار إلى الإنتاج المختلفة مثل الغسيل، التطرين، شبكات الحياكة، الخياطة، الدباغة، صناعة الأحذية. ويأتي في الجزء الأخير على أنواع كثيرة من الملابس الرجّالية والنسائية، مع شرح مفصّل. ويعطي هذا المجلد نظرة عميقة على التقاليد القديمة لبلاد الشام.

وفي المجلّد السادس، يعالج دالمان حياة الخيام، تربية المواشي والألبان، والصيد، وصيد الأسماك بكل تفاصيلها. ويتناول المجلد السابع البيت الفلسطيني وبناءه والتقاليد المتعلّقة به، وكذلك تربية الدجاج والحمام وتربية النحل في فلسطين. ويتناول المجلّد الثامن الحياة المنزلية والولادة والزواج والموت.

أهمية الموسوعة

تُعتبر هذه المدوّنة مصدراً أساسياً للتعرّف إلى حياة الشعب الفلسطيني وذاكرته واستمراريته على أرضه عبر آلاف السنين. ويعتمد هذا العمل الموسوعي على الأبحاث الميدانية التي قام بها دالمان في فلسطين عدّة سنوات (1902-1914). وكان للحرب العالمية الأولى والاستعمار البريطاني الأوروبي في فلسطين ولبداية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين تأثير كبير على المشهد الثقافي والطبيعي في فلسطين، وعلى الحياة الفلسطينية عامة ومع حلول النكبة تعرّضت ثقافة الشعب الفلسطيني للتدمير والطمس. وهنا أهمية الموسوعة وما جمعه غوستاف دالمان من ملاحظات في سنوات عمله في فلسطين، والتي كانت قد بدأت تختفي وتتغيّر منذ أيام الانتداب البريطاني. لذلك، يمكن القول إنّ موسوعته أهم وثيقة عن حياة أهل فلسطين منذ بداية القرن العشرين وحتى 1948، وتشكّل لبنة أساسية في الهُوية الثقافية للشعب الفلسطيني.

(مؤرّخ وآثاري فلسطيني)

الارتحال بصحبة غوستاف دالمان وصقر أبو فخر

محمد ابو زيد

لا أعرف إذا كان اسم غوستاف دالمان قد مثّل لي يوماً ما كابوساً، ولكنّي بتُّ أعرفُ يقيناً بعد أن أخذت الترجمة عشر سنوات في العمل الذي أكبّ عليه دالمان عقوداً، وحمل عنوان «العمل والعادات والتقاليد في فلسطين»، أنّ سِفراً مثل هذا لا غنى عنه معرّباً. سيبقى اليوم العشرون من فبراير/ شباط 2013 محفوراً في ذاكرتي، إنّها السابعة مساء حين التقيتُ على طعام عشاءٍ في فندق موفنبيك (حالياً ملينيوم) في رام الله، المرحوم فايز الصيّاغ، مدير وحدة ترجمان في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في حينه، كان ضيفاً ومضيفاً في آن، والمرحوم كمال عبد الفتاح، الذي دعاني إلى اللقاء الذي تمحورَ حول تعريب موسوعة غوستاف دالمان. عليّ في هذا المقام القول إنّ عبد الفتاح كان أوّل من سمعتُه يتحدّث عن غوستاف دالمان وعمله الموسوعي قبل اللقاء بسنوات.

على مائدة الطعام، كان صديقان قد أتما دراستهما العليا في ألمانيا، علاوةً على المرحومة الكاتبة ليلى الأطرش، وبعفويته المعهودة، وزّع «شيخ الجغرافيين الفلسطينيين»، (لقب غُرف به كمال عبد الفتاح)، افتراضياً المجلدات على الحاضرين وعلى غائبين، ممن كانوا على صلةٍ بالموضوع وباللغة الألمانية. حظيتُ بمجلدَين، الرابع والسادس. بعد أيّام، وصلت نسختان مصوّرتان. وكمن يشارك في سباقٍ تتابع، انطلقتُ على الفور.

لم يكن لديّ تصوّر مسبق عن المادّة. كلّ ما توفّر لديّ في ذلك الوقت لم يتعدّ استعداداً للمشاركة في العمل، نوعاً من التحدّي. وفي تشخيص فوري من خلال نظرةٍ خاطفة، اتضحت الصورة التالية لديّ: أولاً، اللغة المستخدمة ليست التي اعتدتُ على التعاطي معها، على الرغم من أنّني، وبكلّ تواضع، لم أقصّر مطالعاتي على مواضيع محدّدة. ثانياً، كلّ جملةٍ أو فقرة تكاد تشبه جبل الجليد الذي لا يظهر منه سوى القمّة. ثالثاً، المعلومات المدفونة عابرة للعصور، ولا يمكن تركها من دون نبش. رابعاً، الجهد الكبير المبذول في كتابة لغةٍ بحروفٍ لغةٍ أخرى. خامساً، وفرة الاقتباسات وبلغاتٍ متعدّدة. ليس سرّاً أنّ ردّ فعلي الأوّلي كان نوعاً من ارتياب ساورني في قدرتي على القيام بالترجمة.

مرّة أخرى: لقد اعتدتُ على لغةٍ غير هذه اللغة. كنت أعزّي نفسي أنّ خبراء في المادّة لا بدّ أن يراجعوها، وأنّ عملاً موسوعياً بهذا المستوى لا بدّ أن المشاركين فيه سيجدون قاسماً مشتركاً بينهم. انطلقتُ بخطواتٍ بطيئةٍ كمن يتحرّك في حقل ألغام. اعتدتُ ألّا أستخدم الحاسوب مباشرة. تعوّدتُ، في وقتٍ مبكّر من حياتي، على استخدام أقلام حبر سائلة ذات ريشةٍ عريضة. ربما شكّلت هذه، وصفحات ناصعة البياض، طقس الكتابة أو الترجمة الوحيد. أشكّ أنّني من دونها كنتُ سأنجز العمل. من جهةٍ، وجدتُ متعةً لا تقدّر بثمن، حين كنتُ أكتبُ بحروفٍ عربية ما كتبه المؤلف من أهازيج وأمثال قلب متى تأتي الهمزة والألف المقصورة والممدودة والحاء والهاء والخاء والسين والصاد والضاد والدال والذال... إلخ. ومن جهةٍ أخرى، كانت هناك الأزمنة القديمة التي تتطلّبُ إماماً بالعهد القديم خاصة. حاولتُ الالتفاف عليها، حتى لا أتوقف طويلاً عندها. اعتقدتُ أنّ عليّ الاستعانة بمن درس اللاهوت، لكن «البشارة» أتت من «منسّق المشروع» نفسه: لا داعي لترجمة الأزمنة القديمة. حتى الآن، لا أعرف على أيّ أساس قرّر ذلك، خصوصاً أنّه كان عليّ ترجمتها لاحقاً. لم يتوقّف الأمر عند المجلّدين المذكورين، بل بات منسّق المشروع يُلاحقني تباعاً بموضوع مجلدات أخرى لم يعمل من وكلّهم بها عليها، على الرغم من مرور وقتٍ طويل. وفي كلّ مرّة كان جوابي «بتمون» يعكس ضمناً المتعة الحقيقية التي بتُّ أشعر بها في الترجمة، بعد أن تولّد لديّ إحساسٌ فطريٌّ أنّي بتُّ «قريباً» من المؤلف، فضلاً عن رغبةٍ في التعرّف إلى الثقافة والمعلومات الغزيرة التي كدّسها، أحياناً، كنتُ أتوقّف فجأة خلال الترجمة، وقد انتابتني حالة من الدهشة أمام كلّ هذا المجهود الذي بذله المؤلف، الآن فقط يمكنني القول إنّ جهدَ المؤلف على مدى عقود قد يكون السبب الرئيس أمام إنجازي، مترجماً ومراجعاً، هذا العمل. ربما أردتُ لاشعورياً محاكاته. لا شكّ أنّ لديّ الآن أنّه لم يكن بيدحت عن سبل سهلة، بل اختار طرقاً وعرة ربّما كانت السبب وراء صنع هُويّة جديدة مركّبة تشكّلت لديّ في أثناء العمل. فقد وضعني وجهاً لوجه قبالة عصور وأزمنة كنت أجهلها، شكّلت فيها كلمات بالفلسطينية – المسيحية والسريانية والآشورية والآرامية والعبرية والعربية والتركية واليونانية علاماتٍ على الطريق. كما وفّر لي الفرصة لأن أتعمّق أكثر في اللغتين العربية والألمانية. ولم تغب العاطفة عن الموضوع. فقد أحسستُ خلال الترجمة أنّي بصدد عاشق لفلسطين، قبل أن يكون هناك «عاشق من فلسطين»، إنّه رجلٌ اعتاد أن يذكّرني بقول نزار قباني أنّ العرب دخلوا إسبانيا عشّاقاً وليسوا فاتحين. في ذهني انطبعت صورة عاشق متواضع. ولم تكد تنتهي رحلتي مع دالمان، حتى بدأتُ رحلةً أخرى لم يكن قد خُطط لها أصلاً، رحلتي مع صقر أبو فخر، أكاد أجزم أنّها كانت أصعب من رحلتي مع دالمان. فعوضاً عن ملاحقتي من طاقم «تسقيط الأخطاء»، كان عليّ أن أكون تارّة تلاّداً للغات السامية أو من كهنة العهد القديم، وطوراً تلميذاً في اللغة العربية، فكم من مرّة أعادني أبو فخر إلى النصّ الأصلي للتأكّد من سريانية كلمةٍ أو اشوريّتها؟!

كم من مرّة ردّني على أعقابي، حتى بعد أن اقتنعتُ كتابة لغةٍ بحروف لغةٍ أخرى؟ فإذا بعيد الوالي يصبح عبد الولي وقريعة سيدي تصبح صلعة جدّي، وسي رايد يصبح خليل رعد أول مصوّر فلسطيني، ورهيني عاد ربحاني والمستعمرة العربية تصبح الطالبية (حي بناه أثرياء فلسطينيون غرب القدس) ورأس الزيامية يبقى حقيقة قائمة حتى اليوم في القدس!

حتى الأرقام لم تسلم من أبو فخر: لماذا 734 متراً تساوي 27 متراً مربّعاً؟ وأخيراً، وليس آخراً ماذا نعمل بـ«زمقنا»؟ إذ لم يحسم الخلاف حول «زميقنا» حتى بعد صدور الموسوعة. هل هو الـ«زميق» وتعني «حليق اللحية»، كما وردت في معاجم اللغة، أم أنّ «زمقنا» ليس سوى أحد نزلاء مصح المجذومين في القدس سليل عائلة من لقّنا المحاذية للقدس؟ ثم كانت هناك الكلمات اليونانية: أين هي بحروفها اليونانية؟

ذات خميس في مارس/ آذار، وفي ظلّ جوٍّ عاصف، وعلى طريق المعرجات الذي يمتدّ على مسافة 40 كيلومتراً رابطاً أريحا برام الله، حين كانت درجة الحرارة تنخفض تباعاً حتى بلغ الفرق 15 درجة مئوية عند وصولي إلى رام الله في ساعات ما بعد الظهر، من أجل تحميل الحروف اليونانية على مفاتح حاسوبي. بانفعال ولهفة، كتبتُ لأبو فخر عن مغامرتي، وكيف انتقلتُ على عجل من أريحا، حيث الجو الدافئ، إلى رام الله، حيث البرد القارس (كنت قد كتبتُها بالصاد). لم يخف الأستاذ تعاطفه، ولكن أيضاً خيبة أمله من ذلك الذي استبدل السين بالصاد. خمس عشرة درجة مئوية لم تشفع لي عنده، رغم أنّ البرد يقرض قرصاً مثل بقرس كما يقيدنا اللغويون. عادةً ما يأتي الفعل في الألمانية متأخّراً. وعن ذلك لا يمكنني الاعتذار. ولكن عليّ الاعتذار أنّ فعل الشكر عندي بالعربية قد أتى متأخّراً بعض الشيء. فعلى الرغم من تعقيدات إدارية، ربّما نتيجة طول الفترة، وتبدّل القائمين على وحدة ترجمان، لعبت مديرة الوحدة لورا صبّاح، دوراً منظّماً وضابطاً. أما مديرة التحرير، تريز سركيس، فقد زيّنت بملاحظاتها الصارمة العمل كي يخرج بالشكل الأنيق الذي فاجأني عندما رأيت المجلّدات تصطفّ في صندوقها بمؤسّسة عبد المحسن القطّان في رام الله أوّل مرّة.

(المترجم الرئيسي للموسوعة)

امرأة من بيت لحم

التعب اللذيذ

صقر أبو فخر

لا أبالغُ إطلاقاً، ولا أجازفُ في الكلام، إذا قلتُ إنّ موسوعة غوستاف دالمان الموسومة بعنوان «العمل والعادات والتقاليد في فلسطين» بأجزائها العشرة، تُعدّ من أهمّ وأغنى ما كُتب عن فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم. وهي، بلا أدنى شكّ، أفضل كتاب عربي عن فلسطين يصدر منذ 50 سنة، أي منذ أصدر أنيس صايغ «الموسوعة الفلسطينية» بأجزائها العشرة أيضاً. لقد أضناني تحرير هذه الموسوعة، وأورثني الأمّ في العمود الفقري، وشحّا في الإبصار. لكنّني شُغفتُ بهذا الكتاب أيّما شغف، وانهمكتُ في تفصيلاته المُدهشة، وتوافرتُ على هذه المغامرة التي تشبه، إلى حدّ كبير، ارتياد الكهوف والمغاور؛ فكلّما قطعتُ شوطاً مراراً في خضم العمل فيه، وعلى انشراحنا وغبطتنا وسرورنا كلّما حللنا عقدةً من عقد الكتاب، وهي كثيرة جداً جداً، وهذه الموسوعة جعلتني أكبّ على قراءة القواميس الزراعية، وربّما أصبحت خبيراً في الزراعة جرّاء ذلك. وكانت المصطلحات الغريبة العجيبة تتقافزُ من بين سطور هذه الموسوعة وتصبحنا بالدوار. وعلى سبيل المثال مصطلحا «المشملة اليابانية» و«المرقبة الشوكية» اللذان أرغماني على التفتيش عنهما في معجم مصطفى الشهابي للمصطلحات الزراعية. ولاكتشف، بعد جهد وعذاب، أنّ المشملة اليابانية هي الإسكيدينا أو الأكي دنيا، وأنّ المرقبة الشوكية إنّما هي البلان (نبتة وردية). وكنتُ أخال أنّني أعرف جغرافية فلسطين وبلدانيّتها كما أعرف ظاهر كفّي. غير أنّني اكتشفتُ، كلّما كنتُ أتوغّل بالتدريج في ثنايا فصول الكتاب، أنّني لم أكن مصيباً تماماً. وعلى سبيل المثال قرية «فارة»؛ فهناك عدّة قرى تدعى «فارة» في الضفة الغربية لنهر الأردن وبالقرب من مدينة صفد. وقد قادني الشك إلى الاعتقاد أنّها ربّما كانت «الفارعة». وكان عليّ أن أصبح جغرافياً وطبوغرافياً في الوقت نفسه، أي أن أدرس الإحداثيات لأطابقها على كلّ قرية تدعى «فارة»، ثم أعيّن المكان بدقّة كي يستريح بالي. وعلى غرار ذلك قرية «البكيعة» بالكاف. وبعد التأكد، عرفت أنّها «البقيعة». لكن هناك البقيعة في جبل نابلس وفي الجولان وفي الجليل. وكان عليّ أن أبحث في المراجع البلدانية، وأن أطابق الإحداثيات قبل أن أجزم أيّ بقيعةٍ هي المقصودة هنا. وقد حربتُ أيّما حيرة في ويتناول المزيد من التحليلات الخاصة بالنسيج، مثل النول بأنواعه، ثم تقنيات الإنتاج المختلفة مثل الغسيل، التطريز، شبكات الحياكة، الخياطة، الدباغة، صناعة الأحذية. ويأتي في الجزء الأخير على أنواع كثيرة من الملابس الرجّالية والنسائية، مع شرح مفصّل. ويعطي هذا المجلد نظرة عميقة على التقاليد القديمة لبلاد الشام.

وفي المجلّد السادس، يعالج دالمان حياة الخيام، تربية المواشي والألبان، والصيد، وصيد الأسماك بكل تفاصيلها. ويتناول المجلد السابع البيت الفلسطيني وبناءه والتقاليد المتعلّقة به، وكذلك تربية الدجاج والحمام وتربية النحل في فلسطين. ويتناول المجلّد الثامن الحياة المنزلية والولادة والزواج والموت.

أهمية الموسوعة

تُعتبر هذه المدوّنة مصدراً أساسياً للتعرّف إلى حياة الشعب الفلسطيني وذاكرته واستمراريته على أرضه عبر آلاف السنين. ويعتمد هذا العمل الموسوعي على الأبحاث الميدانية التي قام بها دالمان في فلسطين عدّة سنوات (1902-1914). وكان للحرب العالمية الأولى والاستعمار البريطاني الأوروبي في فلسطين ولبداية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين تأثير كبير على المشهد الثقافي والطبيعي في فلسطين، وعلى الحياة الفلسطينية عامة ومع حلول النكبة تعرّضت ثقافة الشعب الفلسطيني للتدمير والطمس. وهنا أهمية الموسوعة وما جمعه غوستاف دالمان من ملاحظات في سنوات عمله في فلسطين، والتي كانت قد بدأت تختفي وتتغيّر منذ أيام الانتداب البريطاني. لذلك، يمكن القول إنّ موسوعته أهم وثيقة عن حياة أهل فلسطين منذ بداية القرن العشرين وحتى 1948، وتشكّل لبنة أساسية في الهُوية الثقافية للشعب الفلسطيني.

(مؤرّخ وآثاري فلسطيني)

صرف دالمان 20 سنة في جمع المعلومات عن فلسطين وتدوينها ومطابقتها على الجغرافيا

موقع «راس الزيامبي» في القدس، ودُخْت كما يدوخ عائر الحظ، وجُلتُ على جميع المصادر من بلدانية فلسطين العربية للأب مرمرجي الدومينيكاني إلى بلدانية فلسطين المحتلة لأنيس صايغ، مروراً بموسوعة فلسطين الجغرافية لقسطنطين خمّار، وكتاب المواقع الجغرافية في فلسطين لشكري عرّاف. ولمّا أعياني التفتيش انتشيتُ إلى «الموسوعة اليهودية» (الجوداييكا) وإلى كتب الرحالة والخرائط وكلّ ما كُتب عن القدس، فلم أعثر على هذا الموقع. وقرّرتُ أن أكتب حاشية تشير إلى أنّني لم أتمكّن من تحقيق هذا الموقع على وجه الدقّة. وبقيتُ أنا والدكتور محمد أبو زيد نعمل قصّاصي أثر وراء بعض المواقع العالقة والمصطلحات المعلّقة. وراح محمد أبو زيد يسأل الناس عن «الزيامبي»، وكاد أن يبدأ التفتيش في وثائق المحاكم الشرعية لعلّه يعثر على ضالّتنا. وفجأة ظهرت له قرية «البكيعة» بالكاف. وبعد التأكد، عرفت أنّها «البقيعة». لكن هناك البقيعة في جبل نابلس وفي الجولان وفي الجليل. وكان عليّ أن أبحث في المراجع البل